

# القصص

أقصصة عراقية:

أبو جاسم

للأستاذ محمود . ا . السيد

- ١ -

حدثني صديقي ابراهيم والد كرى توله ، قال :

« كنت في المدرسة الثانوية - السلطانية المئانية - قبل احتلال الجيش البريطاني بغداد بسنة أو أقل ، أصاحب طالباً من ذوى الذكاء الواعد والخلق الجميل . كنت في السادسة عشرة من العمر . وكان هذا الصديق - واسمه علي بن حسن - خيراً عون لي في المدرسة . وكنت أعجب بذكائه .. وكان طليقاً جريئاً يسمو على أقرانه بكثير من المزاي والصفات وكان الى جانبنا طالب آخر يكمل لنا « ثالثاً » مقدماً بالأخاء والوداعه عبدالمعز . وهو من أبناء الطبقة العاملة . كان

« شاق نطق هذا العدد من الصور الرائجة التي يجلوها الأستاذ درسي خشية من ( سور هوبروس ) فمفخرة الى قرائها اللجيين بها . وستوالى نصرها من المبدد القادم

عَجَبِي عَلَى بَاغَرِ يَقُو  
اسْتَمَرُّوا فَتَلَمَّوْا  
رَمَتِ التَّنَمَّرُ مَثَاهِمُ  
شَرَّرُ بِرُومَا طَارِ بِرُ  
الشَّعْبُ هُدَّدَ بِالطَّوِي  
يَسْأَلُ الْأَكْوَامُ هَلْ  
زَعَمْتَ أَرْكَانَ السَّلَا  
كُومِ حَمَادِ  
لُ لِمَنْ بَنَى : هَذَا حَرَامِ  
وَخَرَجَتْ مَكْتُوفَ التَّامِ  
فَظَهَرَتْ فِي رِشِّ النَّعَامِ  
شِكُّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامِ  
وَالجَيْشُ بِالْمَوْتِ الزَّوَامِ  
« نِيرونُ » بِعَدِ الْمَوْتِ قَامِ  
مِ قَدَّقِ مِرَارَةَ الْإِنْتِهَامِ  
محمود بنعيم

أكبرنا سناً ، وأقلنا تهديداً ، وأجرأنا قلباً ، يسلدون علينا في الاعتزاز والتفاخر برجال التاريخ الاسلامي العربي : أجدادنا الأولين . وذلكم كان ديدنا في ذلك العهد : فجر الحرب العالمية الاستعمارية الكبرى وضحاها

وكان أكثرنا حباً لبغدادنا وإينالاً فيها . . . يماثر خارج المدرسة فتية من أبناء طبقته المكثورة فيشاركهم فيما يعتقدون من باطل العقائد والخرافات . وكان يرى - فيما يرى من غريب الآراء - أن القبعة العسكرية « الأنورية » التي ابتدعتها الحكومة - الاتحادية إبان الحرب لرجالها ولطلبة المدارس ، قبعة أفرنجية ، حرام على المسلمين لبسها ، وأن رباط العنق رمز للصليب . ولم يلبس القبعة حتى آخر يوم من أيامه في المدرسة ، فكان الطالب الوحيد البارز من بين الطلبة بطربوشه الأحمر القديم . أما أنا وعلى فقد لبسنا القبعة تلك لأننا لم نستطع أن نشذ عن الجماعة شذوذه . وكان هذا الصديق الجريء يقضي أغلب أوقاته في مناظرة الطلبة وتحسيسهم ، فكنت أنصحته راجياً منه أن ينصرف عنهم وعن مناظرتهم الى التوفر على دروسه فما كان النصح يجدي وكان يؤسفني أنه عرف آخر الأمر بأنه شكس سي الخلق ، وإن كان في الحقيقة طيب السريرة خيراً . ولعلهم كانوا يسيون عليه كرهه للقبعة « الأنورية » لغير ما سبب معقول . وكانوا يتخذونه وطربوشه القديم الذي أوشك أن يبلى هزواً ؛ وهذا ما كان يهيجهم . ولم يزد عقاب للمدرسة إياه على تشبیه إلا جرأة واستمراراً في الشذب والتزاع والخروج على « النظام » وكما كان يكره القبعة ، كان يكره الحكومة - الاتحادية - أشد الكره ، لأنها حين اضطرت فار الحرب جندت أخاه الكبير وأرسلته مع من أرسلت من أبناء العراق الى سوح الوغى في القوقاز ، ففقدت أسرته بذلك قوامها وسبب حياتها ، كان قائماً مقام أبيه الشيخ الكبير الذي لا يستطيع عملاً ، وكان يحسب أنه لاحق به في العاجل القريب

وظاهر أن هذا السلك الذي سلكه عبد العزيز يومئذ كان يجب أن يؤدي إلى شر . وكان يجب أن يكون مصيره « الطرد » من المدرسة والحرمين من العلم . وكان متوقفاً كذلك أن يتألى بعض الأذى من أجله ، فقد كان المدرسون والطلبة - إلا القليل منهم - يناوؤونا ممّا وبكرونا ويمادونا أشدّ عداً .

واشتدت الحرب في العراق . وطنى سيل الغزاة الفاتحين . غاب البريطانيون ، وأصبحوا على أبواب بغداد ، فتتكرت الأيام للناس ، وجندت الحكومة طلبة الصفوف العالية ، وأكبت على طلبة الصفوف التالية الأخرى تعلمهم كما تعلم الجند فنون الحرب والضرب وتفحصهم في أشق الرياضات العسكرية لتلحقهم بهم . وهنا كان حجبنا الطلبة جميعاً - في مدرستنا - حجباً ، يملأ قلوبهم الرعب والخوف

أما عبد العزيز فقد استيقظ في نفسه من جراء ذلك شعور بعض المدرسة ، بنض للخروج مع الطلبة - على ما كانوا يفعلون في كثير من الأحيان - إلى استقبال القواد وحضور الحفلات الحكومية ، بنض لمدرس الرياضة الذي أرسل إلينا آتذ من الجيش ، وهو ضابط فظّ بدين ، ذو شارين غليظين منتصبين كالصياصي ... وكان يخشاه

وكان - من بعد - حين يخرج من بيته صباحاً يتلصقاً في الذهاب إلى المدرسة ، ويحاول أن يتأرض لكي ينقطع عنها أياماً قليلة أو كثيرة . كان ينادر البيت كل صباح ، وكأنه - كما كان يقول لي - يساق إلى سجن لا إلى دار علم وعرفان

وجاءنا إذ ذاك مدير للمدرسة جديد - وهو رجل عنيد ، كان يحسبنا مجموع دوى من الشمع يسهل عليه اذابتها ثم صنعها ثانية على الفرار الذي يريد . وكان أول من لفت نظره إليه من الطلبة : عبد العزيز ؛ فقد أثار سلوكه اهتمامه وعنايته ، وراح يرهبة ويبالغ تأديبه وتهذيبه بالمعصا . وأذكر أن طالباً من أبناء الضباط الذين جاءوا ببنداد في أواخر أيام الحرب من البلاد الشمالية ، سقته ذات يوم ثم عبره بالعامة والفقير ، فقابلته بالصقع والضحك الوجع المهن ، فما كان نصيبه من المدير إلا الاهانة و « الطرد » . وبذلك أسدل الستار على حياة المدرسية ، وألجى إلى التشرذم والطفلة ؛ وأسفاه !!

ولقيته بعد ذلك فأنفيتها جزءاً ، وقص على قصة النزاع بينه وبين ذلك الطالب - ولا أذكر اسمه الآن - قال :

« غادرت البيت صباحاً وأنا كئيب مجزون ، لأن أي التي لا تقنأ تذكر أخى الجندي ليلاً ونهاراً بالحسرات والدموع ، وأبى للقبل على آخرته غير آسف على شيء في الدنيا ، وهو يحبه حباً جماً ، لم يصل إليهما كتاب منه منذ شهر وبعض شهر . فأفرغ ذلك سبرها بل أقدهما الرشد . وإذ كنت أمشي في الشارع فاجاني خمسة من الشرط يدون وراء رجل علت من بعد أنه جندي هارب . وصرخ أحدهم قائلاً : « خائن ! قف ! » ثم أطلقوا عليه الرصاص من بنادقهم فأردوه . وسقط نعباً جريماً يلهث وعيناه تنظران إلى السماء . ووقفت على مقربة منه أنظر إليه في لهفة وفراق ؛ وهو ملقى وقد اصفر لونه وجلت وجهه سحابة من قتر الطريق ، ونشجت أعصابه من الخوف ، وأقبل الشرط بتراطنون يريدون أن يحملوه ... أعرضت عن هذا المشهد الذي آلتني أشد إيلام وانصرفت سامتا ، ولحظت أن الشمس تملأ الأرجاء نوراً ، فعرفت أنني تأخرت عن موعد الدرس الأول . وكنت أمشي متباطئاً ذاهلاً ، فما انتهت إلا وأنا على باب غرفة صفى ... طرقت الباب طرقة خفيفاً مررة فترتيت وحاولت الدخول فجابهني المعلم ناهراً إلياً بقوله : « أخرج ، أخرج ، اندفع يا حمار ! » أو كنت حماراً في اصطبل أبيه ؟ ! وكنت حتى حين خروج الطلبة من الصف إثر الفراغ من الدرس نائراً مهتاجاً ، فلقيني ذلك النذل فلاغاني فلكته ، وماذا كان يجب على أن أفعل ؟ وسحقاً للمدرسة بعد أن يتألى من هؤلاء فيها أذى ! »

\*\*\*

وقال صديقي ابراهيم وقد حدثني بحديثه هذا بعد انتهاء الحرب ومرور سبعة أعوام على نهايتها :

« ثم احتل البريطانيون ببنداد . وفرقت صفوف الزمن بيثنا - بعد ذلك - إذ رحل بي أبي وأمرتنا كلها إلى الحلة ، فأقنا فيها قرابة سنين أربع ، فلما عدنا إليهما لم أسمع لصاحبي عبد العزيز ذكراً »

- ٢ -

وكتبت هذا الحديث لطرافته عام ١٩٢٩ . ثم مضت على ذلك أعوام ثلاثة ، فبدلت يوماً أن أسأل ابراهيم :

« هلا بحثت في هذه المدة الطويلة للناضية عن رفيقك القديم ؟ رفيق المدرسة وطردها عبد العزيز ؟ »

يوم الجمعة - أمس - الى هناك لأزور صديقي الصحافي عبد الصمد الذي سجن متهماً بنشر ما لا تميز الحكومة نشره ، وإذا كنت أدخل الحجرة التي يُسمح بمقابلة السجناء فيها ألتفتني أمامه وجهاً لوجه . وكان يكلم زائراً غزيباً يرتدى بزة العامة ، ربما كان صديقاً له . ولم أعرفه إلا بعد تأمل فيه قليل ، لأن سحته قد غيرتها السنون ؟ وحييته خياني وبسم لي ، ثم سألني : « أوقد نسيتني يا ابراهيم يا حبيبي ؟ يا رفيق الأيام الحلوة التي لن تعود ! وهل نسيتني على كذا ؟ وكيف هو ؟ ... الخ » ودمعت عيناه من شدة الفرح ببقياي ، وكان طليقاً جريئاً ، كما كان في المدرسة ، في محادثته السجائين وصاحبي الصحافي عبد الصمد الذي لم يكن يعرفه من قبل ، ورأيت أن لهجته في الكلام أصبحت عامية سوقية خالصة ، تميزها التعابير والألفاظ التي تجري - عادة - على ألسنة هؤلاء الذين عرفوا بفعل « الشقاوة » - كما نسميها - التي تظهر فيها ، في أغلب الأحيان ، شجاعة نادرة في غيرهم و « أريحية » ونجدة وكرم على فقر ، وجراءة في اجترام الجرائم ، وكرهية شديدة لكل من يمت إلى الأجنبي القاصب بصلة باقية من عهد الاحتلال المظالم ، على ما تعرف . ولا أدري كيف أدركت أنه محكوم عليه بعقاب السجن لاجرامه جريئة قد لا يفخر المرء بها عندنا ، فلم أشأ أن أسأله عما أدى به الى حاله تلك . ومن الغريب أنه لم يكن يرى في أمره غرابة ؛ وكأنه كان معلوماً عندي ما اجترم فلم يخبرني به ؛ وسرعات ما راح يودعني ، إذ كانت الفرصة المسموح بها لزيارة المسجونين ضيقة جداً ، متمنياً أن يلاقيني عقب خروجه من السجن ، و « أنه لا يكون تحت النظر » على حد تعبيره الشعبي الرمزي الجليل ، « فانه لا يزال على وده القديم ، وذلك صاحب القى لا ينسى الصحب على طول الزمان ، ولا يرضى عن الوقاء بديلاً » . وترك المجلس لي ولصاحبي منصرفاً عننا في لباقة وحسن أدب ، كما ينصرف الواحد منا عن اثنين لديهما سر ، ولم يكن لدينا - في الحقيقة - سر غير أمره . فإني كنت في أشد الشوق الى سماع قصته ، وبتعبير أسح : قصة جريمته من صاحبي عبد الصمد ؛ وقد أحججت عن سؤاله عما أدخله السجن ساعة لقيته لكي لا أجرح منه شعوراً طالما كنت أقدره ، بل اقتدسه في ألبنا التي خلت ، في أزهي زمان وأحلاه ، زمان الدرس والتحصيل . وقال لي

فأجبتني وهو شاعر بما يتضمنه سؤال من ملامة :  
 « لقد بحثت في الأيام الأخيرة ، فلفتني من أنيائه ، أنه كان هاجر قبل مدة غير محدودة بالضبط الى البصرة ، ليتكذب فيها ويميش عاملاً لدى إحدى الشركات الأجنبية ، فانه أنجى في عنقوان شبابه ، وبلغ السن التي يستقل فيها المرء بالكفاح والجهاد في سبيل الحياة ، وان أخاه الجندى المحارب لما يمد ، وهلكت أمه ومات أبوه فقيراً معدماً ، لم يترك له إلا ديوناً وداراً ، بل كوخاً باعه الدائنون ؛ ولم يف ثمنه بمشر معشار تلك الديون . ولم يكن متعلماً حرفاً ، ونسى ما تعلمه في المدرسة الثمانية من مبادئ العلوم . وكان يزاول بعض الأعمال الشاقة الثقيلة التي تراولها الهال الذين هم من أدنى الدرجات ؛ ولا يأخذون عليها أجراً يستحق ذكراً . هذا كل ما سمعته عنه . ولا يعلم أحد على التحقيق أذهب الى البصرة أم الى جهة أخرى »

قلت :

« أو لا ترى من واجب الوقاء إتمام البحث عنه لاستئناف الصلة به والوقوف بجانبه في معترك الحياة ، في هذا المجتمع الذي طنت فيه المادية والأناية والفردية ، المجتمع الجائر القاسي الذي لا يرحم الفقير ، وأن تنفعه وتمينه على اكتساب الرزق ، فانك موسر بمض اليسر . »

قال :

« وهل تحسب عبد العزيز المشاغب في المدرسة ، الذي لم يعرف سوى عزة النفس والأباه في أيامه للماضية عدة وخطقاً ، والذي لم يستمن أحداً من صحبه يوماً لو وجدته الآن لعد لي ولأمثالي يده في إبداء حاجة واستماتة مهما كان معسراً تنقض ظهره الشدة والفاقة ؟ كلا . أما لا أحسب ذلك ؛ بل أحسب أن تلك الفترة من أيام مراهقته وقائمة شبابه ، كانت مقدمة وعنواناً لما كان مقبلاً عليه من أيام شبابه ورجولته »

ثم سكت وسكت

وبعد شهرين أو ثلاثة أقبل على زورني في داري ، وما عثم أن راح يتحدثني عن رفيق شباه عبد العزيز الذي عثر به آخر الأمر فقال :

« ولقد وجدته آخر الأمر . وصاغته ... ولكن أين ؟ احزر أين وجدته ؟ في السجن ! ولا تستغرب ؛ فقد ذهبت

عبد الصمد : « هذا فتى باهر الخصال يا أخى ، ولا أرى قائدة في أن أقص قصته عليك في اسهاب وتفصيل ، فهو الآن مجرم محكوم عليه بالسجن ثلاث سنين لأنه جرح رجلاً من الأجانب ، كان يحترف عملاً فنياً لدى شركة أجنبية في البصرة ؛ وكان عبد العزيز « يشتغل » هناك بيده كامل لا شأن له ، ورئيسه ذلك الأجنبي ، على أنه كان شخصاً غنياً بين العمال ، خشن الطباع ، شرساً ، كذلك قالوا عنه . وليس في حادثته التي طوحت به الى السجن ما يستغرب منه ومن أمثاله في العراق اليوم ، فقد انتهى ذلك الأجنبي ذات يوم ، وشتمه وأهانته ، لأنه أخطأ في عمله ببعض الخطأ ، فما كان منه إلا أن قابل أهاتته اياه بطئنة عديته ، فجرحه ، ولم يصب منه مقتللاً . انتهت قصته . أما هو فما يزال يذكر الحادثة غير مكترث بما صار اليه من جرائمها ، فهو يرى لها سبباً من أسباب التفاخر بالجرأة والشجاعة ، ولا يسيأ أن المجنى عليه أجنبي من بقايا الذين جاءوا في الحرب في « الحملة » على العراق ، وهو يقول لنا عنه في سداجة ويكرر قوله مراراً : « ليته كان من أبناء أمتنا أمثالى ، إذن والله لما جرحته ، لما جرحته » ، فانظر الى رقة شعوره وشدته كرهه للأجانب الذين أرهقوا البلاد في الحرب الاستعمارية الكبرى وبمدها . . . . . والعبرة ليست فيما حدثتلك ، بل فيما أرى عند هذا الصيد العزيز الذى لقبوه في السجن بأبي جاسم كما يلقب العراقيون عادة فتياهم ذوى « الأريحية » والشجدة والشجاعة ، مجرمين كانوا أو غير مجرمين ، من فلسفة القوة والأمل والتغاول والاستهزاء بصروف الحياة ، فاني - وقد خصني بصداقته ورحابه منذ أن دخلت السجن - قد أسفت على حالى كثيراً ، وطلبا اسودت الدنيا في وجهى بأساً وتشاؤماً ، فلا أكاد أسمع نصائح الساذجة في ظاهرها ، وضحكاته ذات الرنين العالى ، وأغانيه الشمبية التي يرسلها من نفس زاخرة بالأحلام والآمال ، حتى تنفجرُ نفسى من اليأس ، وتبعد عني سحب التشاؤم والأسى ؛ فوالله ما نفعتنى في هذه الأيام العابسة الكتب وقلسأتها المهدبة الصقولة ، بقدر ما نفعتنى نصح وضحكات وأغانى هذا الصديق الجديد في السجن ، بل في مدرسة الرجال والأبطال ، على ما يسميه ؛ وأنا ناقل لقوله فإعلى من لوم ، فالتناس تسمى السجن مدرسة المجرمين »

\*\*\*

قال محدثى ابراهيم :

ثم زابلت السجن وكلى أسف على حياة صاحبي القديم ، التي أحسبها ضائعة بمد هذه الحال التي صار اليها ؛ وهذا ما كنت أتوقه منذ طرد من المدرسة السلطانية المنيانية . تلك مقدمة هذه نتيجتها ... وفي نيتي أن أزوره يوم الجمعة القادم »

قلت وأنا مصغ له ق غير أسف :

« ولكن عبد العزيز أبا جاسم ، وهو جدير بلقبه هذا ، كان شريفاً من قبل ، شريفاً من بعد ؛ ورب مجرم معذور ؛ فاما أنه كان فقيراً وسوف يتدوم كما كان ، فما في الفقر من عيب . وما ضاعت حياة من كان مثله إياه وعزة نفس ... »

العراق - الأعظمية محمد ر. أ. السيد

لجنة التأليف والترجمة والنشر

أتمت لجنة التأليف والترجمة والنشر طبع كتاب :

# المختار

للأستاذ عبد العزيز البشري

وهو المتخير مما جادت به قريحة الأستاذ في عشرين عاماً وهذا الجزء ينتظم ثلاثة أبواب : الباب الأول باب الأدب ، والثاني باب الوصف ، والثالث باب التراجم وقد طبع طبعاً أنيقاً مضبوطاً كثيراً من لفظه بالشكل مفسراً ما يقع فيه من غريب وذلك على ورق صقيل ، وحلى فوق هذا بصور فاخرة وغلاف بفلان بديع ثمين ، ونحن هذا الجزء خمسة عشر قرشاً صاغاً عدا أجرة البريد ونطلب بالجملة من مكتبة المعارف بالقبة والمفرد منها ومن المكاتب العميرة